جذور نظام الطبقات في الهند دراسة تحليلية من خلال كتب الهند المقدسة

The roots of the caste system in India an analytical study through the sacred books of India

د. ازهار هادي فاضل
جامعة الموصل- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم التاريخ

Dr. Azhar Hade Fadil
University of Mosul- College of Education for Humanities Sciences
Department of History

azhar_hade@yahoo.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/٥/٣٠
تاريخ القبول ٢٠٢١/٧/٦

الكلمات المفتاحية: جذور – الهند المقدسة- الطبقات

Keywords: Roots - Holy India - Castes

الملخص

تعدّ المعتقدات الدينية في الهند أس جميع النظم الإجتماعية ومنها نظام طبقات المجتمع. فالنظم الإجتماعية في حقيقتها نظم دينية فلسفية، إذ ارتبط هناك الدين بالفلسفة ارتباطاً وثيقاً، فالفلسفة هي الدين، والدين هو الفلسفة. ويعتقد المواطن الهندوسي أن تعاليم الدين تهيمن على جميع مفاصل حياته وعمله، فكل هذه الاعمال هي اعمال دينية. ومن هذا الاعتقاد احتل الفيدا مكانة كبيرة في حياة الهندوس على مختلف مشاربهم، وهو من نظمَّ واصلَّ لجميع مفاصل الحياة هناك ومنها نظام طبقية المجتمع.

Abstract

Religious beliefs in India are the basis of all social systems, including the caste system. Social systems are, in fact, religious-philosophical systems, as there is closely related to religion and philosophy, so philosophy is religion, and religion is philosophy. The Hindu citizen believes that the teachings of religion dominate all aspects of his life and work. All these works are religious works. From this belief, the Vedas occupied a great place in the life of Hindus of all walks of life, and it was the one who organized and continued all aspects of life there, including the class system of society.

المقدمة

إن حالات التنوع الإجتماعية التي يستخدمها الإنسان في المجتمعات تشكل تصورات تشكل توجيه مساره ضمن محيط تركيبته الإجتماعية، وايجاد معنى لها ويؤثر فيها. وتتخذ هذه التصورات شكل (الطبقات الإجتماعية)، وعاكسة لحالات التفاوت الإجتماعية التي تكون قائمة في هذه المجتمعات.

سيعالج البحث بصورة أساسية جذور نشوء النظام الطبقي الهندي،[1] في الفيدات المقدسة (VIDA) لديهم، وكيفية العمل على تحويلها من واقعها النظري الذي أصلت له الفيدا، الى واقع الحياة العملي، في ظل مجتمع غلبت النزعة الدينية على تفكيره الإجتماعي، في ظل مجتمع سلطة رجال الدين.

نلاحظ ان نمطية تطور هذه الطبقات اتخذ طابع التبعية، فالمجتمع الهندي في ظل الطبقية عبارة عن أنه مجموعة محدودة من الجماعات يربط بينها علاقات متنوعة لكنها لاتسمح بإقامة تراتيبية متواصلة فيما بينها، ولكنها تقيم تبعية متبادلة في رباعية (رجل الدين– المحارب– التاجر والمزارع–الخادم). إذ لكل واحد منهم واجبات يؤديها نحو الآخرين، وله حقوق باستثناء طبقة الخدم.

إن فهم ظاهرة الطبقية في هذا المجتمع لاتتسنى لنا إلا من خلال تتبع جذورها الأولى: كيف نشأت، كيف تطورت. فإذا كانت قد نشأت في ظل ظروف مادية أو روحية معينة، فهل هذه الظروف مازالت قائمة بما يتطلب الأمر استمرار هذه الظاهرة ؟ أو تغيرت ظروف نشؤها مما يفرض على الفكر الإنساني في تغيير مساره أو تعديل اتجاهه وإضافة افكار جديدة من الغير أو تكيّفه من ذاته مع الظروف المتغيرة.

---

١١١ النظام الطبقي: هو شكل من التنظيم الاجتماعي الشائع في الهند منذ الآف السنين، وهو نظام من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والدينية في الوقت نفسه. وسبب وجوده للمحافظة على سلامة العرق الآري، خوفاً عليه من الاندماج في الاجناس الأخرى التي بدأ يتصل بها: انزو اكوافيفا، علم الاجتماع الديني، ترجمة: عزالدين عنابة، ط١، (د.م: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١م): ص١٦٢.

إشكالية البحث

تشكل واقعة هجرة أمواج من القبائل الآرية في الألف الثاني قبل الميلاد لارض الهند؛ حاملة معها معتقداتها الدينية والفكرية والثقافية وملامحها الجسمانية، ذات أثر كبيرة في المجتمع الهندي وخاصة في تفكيره ونظمه الإجتماعية. فقد ساعدت هذه الهجرات على نمو وازدهار التقسيم الطبقي، والطائفي، والعرقي.

إن تناول مثل هذا الموضوع، أي الجذور الأولى لنشوء هذا النظام في الفيدات يعتبر ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى فهم شمولي للواقع التاريخي لتلك المعتقدات وكتبها المقدسة. لذا سيحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- كيف اصّلت الكتب الدينية الهندية لهذا النظام الطبقي؟ وكيف عززته؟.

٢- ماهي الجذور التي نبتت منها طبقية أو هيكلية النظام الطبقي الهندي، وكيف حصل هذا التدرج الإجتماعي؟.

٣- ماهي الأسس التي اتبعها الآريون في سبيل تحويل هذا النظام من الواقع النظري إلى أمر واقع في الحياة؟.

٤- كيف ميزّ رجال الدين البراهمة انفسهم بطبقة مستقلة عن باقي الشعب؟ وماهي السبل التي سلكوها في تعزيز نفوذهم ومن ثم استقلالهم بطبقة خاصة بهم في اعلى الهرم الطبقي؟.

٥- كيف استفاد رجال الدين البراهمة من الصراع بين السلطتين الروحية والزمنية في ترسيخ هذا التقسيم الطبقي والعنصري والعرقي؟.

٦- هل يحمل هذا النظام في تقسيمه الطبقي الوحدة الدينية والإجتماعية؟.

٧- مانوع العلاقة بين هذه الطبقات؟.

أهمية البحث

يمكن تحديد اهمية الدراسة بـِ:

١- يعمل البحث الحالي على جمع افكار ومعلومات من بطون كتب الفيدات المختلفة والتي تدور حول الديانة الهندوسية ومعتقداتها، والعمل على تحليلها والإستقراء من خلالها جذور النظام الطبقي العرقي .

٢- الوقوف على ظروف نشوء هذا النظام، سواء أكانت مادية أم روحية، وهل بقت ثابتة أم تغيرت، فاذا كانت ثابتة قائمة بذاتها يستدعي الأمر استمرار هذه الظاهرة . أما إذا تغيرت ظروف النشوء هذا فيستدعي الأمر التغيير في مسار أو تعديل اتجاه الفكر الإنساني وإضافة افكار جديدة أو تكّيفه مع الظروف المتغيرة.

معالم الفكر الإجتماعي في الهند قديماً

إن وجود الإنسان وتفاعله مع بيئته الإجتماعية والجغرافية شرط اساسي لقيام اي مجتمع انساني. ونتيجة لهذا التفاعل تنشأ نظم اجتماعية عالية. والفكر الإجتماعي هو محصلة نهائية للتفكير الجماعي المشترك لاعضاء المجتمع في مواجهة المشاكل التي تواجههم مما ينتج عنه تقدم الجماعات الإنسانية لتصل إلى اهدافها المنشودة بطريقة موضوعية. وهو فكر واعٍ للخلفيات الفكرية المتنوعة لبنيتهِ وعملياته الإجتماعية والقوانين التي تنظم هذه العمليات.(١)

يطلق مصطلح التفكير الإجتماعي أيضاً على مجموعة الانشطة والفعاليات والممارسات واشكال التفكير التي عرفتها المجتمعات البشرية منذ بداية نشأتها وإلى الآن، والتي مالبثت أن تطورت وتنامت بالتدريج عبر المراحل التاريخية المتعاقبة لتمنح الوحدة والإنسجام الفكري والعاطفي لتلك المجتمعات.(٢)

من الثابت أنه هنالك علاقة وثيقة بين الفكر الإجتماعي الخاص بعصر أو حقبة زمنية معينة، وما بين الأحوال الإجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسود تلك الحقبة أو ذلك العصر. ومن المتعارف عليه أنه لكل حضارة فكراً إجتماعياً خاصاً بها يتسم بمميزات معينة تخلّلت المجتمع الهندي القديم ووفق مظاهر اجتماعية عاكسة لممارسات وطقوس وثقافة وما يجول في عقول افرادها من تصوّرات مرت بأذهان القائمين بها ومتحولة إلى طقوس وممارسات وانشطة منعكسة على طبيعة المجتمع الهندي وفئاته، تاركةً فكراً إجتماعياً خصْباً يختلف في ملامحه العامة عن مالدى الحضارات الأخرى. ويمكن حصر هذه المميزات بما يلي:

أولاً: البنية الإجتماعية للمجتمع الهندي

ينتمي المجتمع الهندي إلى عدد من المجموعات العرقية، يمكن تصنيفها إلى اربعة مجاميع كبرى، إلى جانب مجاميع أخرى ولكنها صغيرة بحيث اختفى تأثيرها. والمجاميع الاربعة الكبرى هي:

السكان الأصليون: ويتمثل هؤلاء بحضارة وادي السند، فقد دلت التنقيبات الأثرية على وجود حضارية عريقة وراقية في منطقتي (موهنجودرا، وهاربا MohinJodaro & Harabba). إذ عثر على مدن ذات طرق منسقة ومبان مشيدة بالآجر، وادوات مختلفة وغيرها. وكشفت هذه

---

(١) عبد الهادي محمد والي، تاريخ الفكر الإجتماعي، كتاب منشور على شبكة المعلومات الدولية/ الانترنيت وعلى الموقع (www.books4all.net: ٢٠٠٥-٢٠٠٦م): ص ٨-١٠.

(٢) د. نبيل عبدالحميد عبدالجبار، تاريخ الفكر الإجتماعي، (بغداد: دار دجلة، ٢٠٠٩م): ص ٦.

التنقيبات على وجود صلات تجارية بين هذه الحضارة وحضارتي وادي الرافدين ومصر.[١] وترجع هذه الحضارة للفترة (٢٥٠٠ ق.م)، أو اكثر من ذلك بقليل. ويقدر تاريخ انقراضها إلى حدود (١٥٠٠ ق.م). واختُلف حول الاسباب التي وقفت وراء انهيارها، ما بين كوارث طبيعية كالفيضات، أو الجفاف بسبب انحباس الامطار والتي ادت إلى جفاف الأنهار أيضاً، أو بسبب انتشار امراض واوبئة. وهناك من ذهب بالقول أن السبب الذي وقف وراء هذا الانهيار وافول نجم تلك الحضارة هو دخول الأريين للهند، وصراعهم معها.[٢]

دخل الآريين في صراع مع سكان هذه الحضارة فكان التفوق فيها لهم، فاضطر السكان الأصليين للانسحاب إلى مناطق الغابات والتلال والجبال والاماكن الداخلية المنعزلة ومن هناك اخذوا بالاغارة على قرى الآرين ودخلوا في حروب استمرت لعشرات السنين ومنتهية بانتصار العنصر الآري المالك لمنظومة اكثر تحضرا واستخدموا الحديد والحصان في هذه الحروب، فتقهقر الداسا أو الداسيس (Dasa الخادم أو الرقيق وهي كلمة سنسكريتية ظهرت في النصوص الفيدية ويقصد بها السكان الأصليين)،[٣] إلى مناطق جنوب الهند والسواحل الجنوبية ومناطق الجبال والتلال، ومنهم من استسلم للآرين وبقي في خدمتهم؛ ومنهم ستشكل طبقة الشودر، ونتيجة لذلك توسّعت مناطق سيطرة الآريين وتوسعت مناطقهم الحضارية، وتم تأسيس المدن والقرى، واخليت مناطق حوض السند وروافده من الداسا.[٤]

---

(١) محمد مرسي ابو الليل، الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٠٦٥م): ص ٢٧-٢٨.

(٢) عبدالله مصطفى نومسوك، البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، (الرياض: اضواء السلف، ١٩٩٩م): ص ٥٣-٥٤.

(٣) اطلقت هذه التسمية عليهم من قبل كتاب الاريين المقدس ريك فيدا، اذا اشار الى انتصار الآرين عليهم بالقول (لقد انشأ الإله المبجل اندرا- القادر على كل شيء- الأنسان الآري، واذل بقوته وجبروته وسلطانه قبائل داسا اللعينة ... ابناء الظلام): الريك فيدا الكتاب الهندوسي المقدس، www.sacred-texts.com/hin/rvsan/rvi01.htm :https:ll الكتاب ٢، ترنيمة ٢٠، الابيات ٦-٧؛ يرى روبسون انه ربما ليس للداسا علاقة بالسكان الاصليين في مناطق السند بل هم جزء من موجات اسبق من المهاجرين عاشت في ضياع محصنة بعد العام (١٥٠٠ ق.م)، وهذه القلاع تتفق مع وصف قلاع الداسا في نشيد الريك فيدا: حضارات السند البائدة، ترجمة: د. مصطفى قاسم، مراجعة: د. محمد زياد كبة، ط١، (ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٧م): ص ٢٠٠.

(٤) المرجع نفسه: ص ١٤.

يعتبر هذا العنصر السكاني من اقدم الجماعات التي استوطنت ارض الهند، من ذوي البشرة السوداء ينتمون لفرعين: فرع من الجنس الزنجي قصيري القامة والشعر الصوفي، انتقلوا اليها من مناطق جنوب شرق آسيا استوطنوا المناطق الشرقية والوسطى في الغابات، وعاشوا حياة بدائية قائمة على جمع الثمار وسكنوا الاكواخ. والقسم الثاني ايضا من الجنس الزنجي طويلي القامة، والشعر الاملس، استوطموا المناطق الجنوبية والغربية في الهند، وخاصة هضبة الدكن.(١) وهم وثنيون عبدوا مظاهر الطبيعة كلها، وخاصة الاله الام.(٢)

التورانيون: قبائل جبلية وصفها المؤرخون بالبربرية، من العرق الاصفر من مناطق تركستان وتوران. تدفقوا للهند من جبال البلوشستان وافغانستان عبر جبال الهملايا، مجتازين سهول برهمابوترا، وعرف هذا المعبر بالباب التوراني. ومن هناك سلكوا طريقين: احدهما نحو وادي الغانج Kanj، والآخر الطريق الجنوبي بمحاذاة خليج البنغال. عُرفوا بصفة الشعر الاملس والعيون الافقية. دخلوا قبل الآريين بقرون طويلة. وخلال مسيرتهم امتزجوا مع السكان الاصليين وتصاهروا معهم ومن هذا الإمتزاج سيولد عنصر الدرافيدين. ويعدّون من اشد الاقوام الغازية المؤثرة في عروق الهند من الناحية الجثمانية فقد اخذ منهم الهنود نسب اجسامهم وتقاطيع وجوههم، وتدرج لون البشرة من السوداء في جنوب الهند، إلى البشرة البيضاء في شمالها.(٣)

الدرافيدين (الدراويديون): الدرافيد نسبة إلى الاسم القديم لمملكة التاميل في جنوب الهند.(٤) ونتج هذا العنصر من توالد الداسا مع التورانيين القادمين من شمال وادي برهمابوترا الشرقي، وتوالد هذا النتاج مع التورانيين القادمين من الشمال الغربي (الباب التوراني).(٥) ومن هذا التزاوج سينقسمون إلى فرعين: الدرافيد الاصليين وهم نتيجة التوالد الاول، والدرافيد المولدين وهم نتاج التزاوج بين النتاج الاول مع التورانيين القادمين من الشمال الغربي للهند.(٦)

من صفاتهم الجسدية البشرة السوداء والانف العريض، عاشوا في مدن محصّنة وبنو حضارة تميزت بمعالمها المدنية الإنسانية في مناطق شمال الهند وفيما يعرف بحضارة وادي

---

(١) روبسون ، السند البائدة: ص١٤.

(٢) نومسوك، البوذية تاريخها: ص ٥٣-٥٤.

(٣) لوبون، حضارات الهند: ص ١٠٤.

(٤) عبدالله حسين، المسألة الهندية، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م): ص ٢٠.

(٥) يذكر حسين أن الآرين اطلقوا عليهم اسم داسا اي بمعنى الوطني، ويبدو انه حصل خلط بينهم وبين السكان الاصليين: المرجع نفسه: ص ٢٣.

(٦) لوبون حضارات الهند: ص ١٤٩.

السند. وامتدت حضارتهم للفترة (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق.م). وسيشكلون عقبة امام التوسّع الآري في منطقة البنجاب كان من نتيجه الدخول بصراع معهم لقرون طويلة منتهياً بإنسحابهم مع الداسا إلى جنوب الهند وسواحلها الجنوبية، واقاموا لهم كيانات هناك وانقسموا إلى اربع فئات تنسب للغاتها الاربع الرئيسة وهي: الكنادية، والماليبارية، والتبلغوية، والتاميلية. وعبادتهم كانت عبارة عن عبادات فطرية.(١)

الآريون: نسبة إلى الكلمة السنسكريتية (آريا)، وهي مشتقة من الجذر (ر)، بمعنى يحرث أو يفلح، واصلها (ar, ri) المأخوذة من كلمة (aratrum) بمعنى المحرث، وبناءً عليه سيكون معنى كلمة (آريا المزراع أو من يقوم بفلاحة الأرض أو مالكها). ثم حول المصطلح ليستخدم كتعبير لتفوّق العرق الأبيض وذلك عن طريق إضافة (a) إلى الجذر (ar, ri) فتحّول المعنى من فلاح إلى نبيل.(٢)

وهم شعب ذو بشرة بيضاء وشعر أسود، لغتهم السنسكريتية، واطلق عليهم مصطلح الآريون في القرن التاسع عشر الميلادي قاصدين بهم مجموعة الشعوب الناطقة باللغات الهندو-اوربية. وفي القرن العشرين اطلق المصطلح دلالة على الفرع الشرقي أي الهندو-ايراني، مما يشير إلى أن مصطلح الآريين مصطلح لغوي بالدرجة الأولى.(٣)

ومن خلال بحثنا لأصول آري الهند وصلنا إلى مدار ندور فيه بطريقة متعددة الجوانب، اختلفت فيها كلمة المؤرخين وتباينت مناحي آرائهم فيما يخص مقام العنصر الآري الأول مما قادنا الأمر إلى ثلاثة آراء سنستعرضها وكما يلي:

الرأي الأول: يذهب أصحابه للقول بأنهم من الجنس الآسيوي، عاشوا في مناطق آسيا الوسطى والشرق الأوسط وجنوب القوقاز أو مناطق تركستان، ومن هناك بدؤا زحفهم باتجاهين، اتجاه نحو اوربا، واتجاه نحو الجنوب ودخلوا ايران وافغانستان وباكستان والهند، وتم هذا الأمر في ازمنة لم يُتمكن من تحديدها، وربما حصل هذا الزحف نتيجة تغيرات مناخية في آسيا الوسطى.(٤)

---

(١) محمد ضياء الاعظمي، دراسات في اليهودية والمسيحية واديان الهند، (الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م): ص ٥٢٠.

(٢) خزعل الماجدي، الحضارة الهندية، ط١، (بيروت: د.ن، ٢٠١٩م): ص٨٢.

(٣) حبيب سعيد، اديان العالم، (القاهرة: دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية، د.ت): ص ٦٨؛ الموسوعة العربية الميسرة، "الآريون"، (دمشق: د.ن، ١٩٩٨م): ٩٩١/١.

(4)Maria Gimbutas., The Slavs, (London: 1971): p 17-18.

الرأي الثاني: وهم اصحاب نظرية (الذهاب والعودة)، فيرون أن الاقوام الهندو–اوربية بعد دخولهم لأوربا واستيطانها حصل هبوط في درجة الحرارة وخاصة في منطقة الدانوب، فهبطوا إلى مناطق آسيا الوسطى دافعين أمامهم سكان البحر المتوسط، فسلكوا حينها اتجاهين، الأول إلى الهند، وهؤلاء اندمجوا مع الداسا ونتج عنهم الدرافيدين ، والمسلك الثاني باتجاه ايران، ونتيجة هذا الاختلاط نتجت اللغة الهندو–ايرانية.(١)

الرأي الثالث: يعتقد اصحابه أن الآريين اصلاً من سكان الهند، ويدعمون رأيهم بالحفريات التي عثر عليها في موقع هاربا التي امتدت من مناطق بروبار في اقليم البنجاب إلى لوثال في كوجرات. إذ دلتّ هذه الحفريات على إنتماء ثقافة هاربا للعائلة السنسكريتية الفيدية، إلى جانب التشابه الكبير بين طقوس هاربا الدينية مع الطقوس الفيدية.(٢)

يرى لوبون أن الزحف الآري للهند قد تم مابين القرنين (١٧–١٥ ق.م)، وبعد سلسلة من الحروب مع السكان الأصليين والدرافيدين كوّنوا لهم مناطق نفوذ واسعة وانعزلوا في بداية الأمر عن بقية سكان الهند.(٣)

ثانياً: طبيعة نظام الحكم وانعكاس تأثيره على التركيبة الإجتماعية

تشير المكتشفات الآثارية على قيام حضارة راقية في وادي السند (حضارة الاندوس)، منذ ثلاثة الآف عام قبل الميلاد، في المناطق الشمالية والشمالية الغربية في مناطق موهان وهاربا. ومن هناك انتشرت شرقا وغربا فشملت نصف القارة الهندية. ومن المخلفات الآثارية لهذه الحضارة وُجِد تشابه كبير بينهم وبين حضارة سومر في العراق، مما دفع المؤرخين للقول أنها امتدت من حوض نهر السند بالإتجاه الغربي ووصولاً إلى شواطئ دجلة والفرات.(٤)

عرفت هذه الحضارة بمدنها ويترأس الحكم ملك والكهنة، باعتبارهم السلطة العليا. واتسمت بنزعتها السلمية والتي ربما كانت أحد أسباب إندحارهم امام القبائل الآرية المحاربة والتي برعت في استخدام الحديد والخيل،(٥) وهذا الامر مهد للآريين السبيل في الانتصار في سلسلة الحروب التي استغرقت قرون على سكان حضارة الاندوس واندحارهم ونزوحهم لجنوب الهند

---

(1)Michel B. Sake Harious., Les Proto_Grecs, (Ekdotike Athenon: 1980): p 68-145.

(2)Weech & Rylands., Peoples and Religions of India, (Canada: 1977): p 311-312.

(٣) حضارة الهند: ص١٠٤.

(٤) أو ربما امتدت من بلاد سومر والى الهند: حسين، المسألة الهندية: ص ١٩–٢١.

(٥) الماجدي، الحضارة الهندية: ص ٦٣.

وخاصة هضبة الدكن.[١] والحروب إمتدت لتشمل حروب القبائل الآرية فيما بينها. ومن هنا نستطيع تقسيم العصور التاريخية للهند القديمة إلى ثلاثة عصور تبعاً للآداب الفيدية والقوانين والفلسفة والعلوم التي ظهرت خلالها وكالآتي:[٢]

١- العصر الفيدي (٢٠٠٠-١٤٠٠ ق.م)

استقر الآريون في هذا العصر على ضفاف نهر السند وروافده، قبل ميلاد السيد المسيح بحوالي (الفين أو ثلاثة الآف عام). خلال هذه الحقبة اندلعت الحروب مع الداسا والدرافيد والقبائل الآرية، عمل خلالها الآريين على تطوير الزراعة والصناعة وكذلك اللغة الآرية (السنسكريتية)، والفت الترانيم (الاناشيد) القديمة والمعروفة بـ (ريك فيدا).[٣]

أدت هذه الحروب والتي اعتبرت مقدسة لتدخّل الآلهة الآرية فيها، إلى بدايات بروز طبقة المحاربين الكشتارين، وبدأت ملامح هذه الطبقة تظهر من خلال هذه الصراعات وإتضاح دور المحاربين وواجباتهم.[٤] وكذلك نشوء الممالك الآرية، ففي القرن (٦ ق.م) كان هناك (١٦) دولة ومملكة وقبيلة، وخلال هذا العصر ظهرت امبراطورية كورالا والفاماس والافانتي إلى جانب الممالك العشرة الهندية.[٥]

نلاحظ أنه في هذا العصر لم يكن هناك تقسيمات طبقية متمايزة بصورة واضحة، فقد عاش الآريون على مختلف قبائلهم كجسد واحد، وكذلك الدرافيدين والداسا كل في منطقته يمارس طقوسه الدينية الخاصة به، اي عدم وجود الوحدة السياسية والدينية. وكان للملوك

---

(١) أ. د. همايون كبير، التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، ترجمة: البروفيسور ذكر الرحمن، مراجعة: عمر الأيوبي، ط١، (د.م: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١٠م): ص ٩-١١.

(٢) الماجدي، الحضارة الهندية: ص ٨٧-٩٥.

(٣) يبلغ عدد هذه الترانيم حوالي (١٠٢٨) ترنيمة، والفت على مدى قرون، وتلقي لنا الضوء على تاريخ الآريين السياسي وحروبهم وعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واهم آلهتهم، ينظر: لويس صليبا، اقدم كتاب في العالم ريك فيدا، ط٣، (لبنان: دار ومكتبة بيبليون، ٢٠١١م): ص ٧٩.

(٤) الرب كرشنا، الكتاب المقدس الهندوسي، ترجمة: تقديم: الشيخ محمد علي الزعبي، (د.م: د.ت): ص ٥٧، ٧٧-٧٩.

(٥) للمزيد عن هذه الحروب ينظر: الكيتا كتاب الهندوسية المقدس، ترجمة وشرح وتقديم: ماكن لال راي شودري، (لبنان: دار ومكتبة بيبليون، ٢٠٠٧م): النشيد الاول (كوروكشيترا)، النشيد الثاني (في ميدان المحارب الآري)، ص ٢٧-٤٤.

كهنة خاصين بالبلاط من اجل القيام بالأضحيات والقرابين، وربّ الاسرة هو كاهنها في الطبقات الاقل من طبقة الملوك والحكام، فكان هو من يقوم باشعال نيران الأضحية والمتمثلة بالإله (اجني)، ويتلو الترانيم المقدسة، والأُم تصنع الشراب المقدس.(١)

نلخص مما تقدم استقرار الآريين في منطقة البنجاب في هذا العصر، وانقسامها إلى دويلات وممالك. ورغم الحروب المقدسة إلا أنهم ارتبطوا بروابط مشتركة جعلت منهم هيكل قوي متماسك وذو صبغة خاصة.

٢- العصر الملحمي (١٤٠٠-٨٠٠ ق.م)

يتميز هذا العصر بتوسّع المستعمرات الآرية والدرافيدية وانتشارها في منطقة الغانج، وظهور الممالك القوية بدلا من القبائل البسيطة . وكذلك ظهور الملاحم (البورانات، ملحمتي المهابارتا والرامايانا)،(٢) واللآتي يعكسن لنا تفكير المجتمع آنذاك والصراع الخفي بين الآرين والدرافيد والداسا، وظهور الفروق بين القبائل الآرية نفسها من جهة وبينهم وبين الدرافيدين من جهة ثانية، الأمر الذي انعكس على التركيبة الإجتماعية، فأمام تزايد نفوذ المحاربين الكشتارين بدأ الكهنة (البراهمة) بالعمل على تعزيز نفوذهم وتكوين طبقة مستقلة خاصة عن البلاط الملكي وعن باقي طبقات الشعب. مما دفع بالآخرين الإنضواء تحت طبقة خاصة بهم.(٣) وخلال انتشار نفوذ الآريين لمنطقة الغانج سيتم لاحقاً تحقيق الوحدة الدينية للهند بأكملها.

٣- عصر القوانين والفلسفة (٨٠٠-٣١٥ ق.م)

ميزات هذا العصر تتمثل في اختفاء دويلات شمال الهند وصعود ممالك شرق وجنوب الهند على مسرح الاحداث السياسية الهندية وازدهار الحضارة الهندوسية من غرب الهند لشرقها وجنوبها، وأزدهار الممالك العشرة ومن أهمها حضارة ماجادا التي تخبرنا حولها ملحمة المهابهارتا فقد عدّت هذه المملكة امبراطورية جمعت شمال الهند بأكملها تحت سلطانها.(٤) وشهد هذا العصر ايضا التمايز النهائي لطبقية المجتمع الهندي، وتحول الهند

---

(١) صليبا، اقدم كتاب: ص ١٠٧.

(٢) المهابهارتا ملحمة الهند الكبرى، ترجمة وتحقيق: عبد الإله الملاح، ط١، (دمشق: دار ورد، ٢٠٠٢م)؛ فالميكي، ملحمة الرامايانا، ترجمة: رياض الملاح، (ابو ظبي: المجلس الثقافي، ٢٠٠٣م).

(٣) للمزيد عن واجبات وحقوق هذه الطبقة وغيرها ينظر: منوسمرتي كتاب الهندوس المقدس، علق عليه وقارنه بكتب الديانات العالمية الثلاثة: احسان حقي، ط١، (د.م: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د.ت): باب خلقة العالم، الفقرات ١٠٠-١٠٣، ص ٣٨-٤٠.

(٤) اساس نظام الحكم في مناطق الآرين القديمة يسمى بالقرية الهندية، وكان هناك مجالس قروية ونظام جباية ضرائب، وفي القرن ٤ ق.م. كان هناك نظام ادارة يعرف بـ (الاتحاد

باكملها نحو الهندوسية، وازدهار الانجازات الأدبية والقانونية إذ دونت تأدية العبادات في (البرهمانات).[١]

الريك فيدا أس نظام الطبقات الإجتماعية الهندية

الفيدا كلمة سنسكريتية تعني (معرفة)، وريك تعني (بيت أو آية)، وبذلك يكون معنى الريك فيدا (آيات المعرفة والحكمة أو أبيات المعرفة).[٢] وهو اقدم نص مكتوب عبرّ الآف السنين وصلنا تقريباً كاملاً غير منقوص، ومن اقدم الكتب التي عرفتها الشعوب الهندو-آرية خاصة.[٣]

وهو مجموعة من الأناشيد تتعدى (١٠٢٨) نشيد (سوكتا)، موزعة على (١٠) حلقات (ماندلا)، ويتألف من (١٠٤٦٢) مقطعاً منسقة وفق قواعد دقيقة واوزان نسقت بحسب عدد المقاطع ينسب ترتيب وتنسيق اناشيده إلى (فياسا) مؤلف ملحمة المهابارتا. ويطلق على مفسر ومنشد هذه الأناشيد بِ (البصار أو ريشي اي الحكيم).[٤]

اختلف المؤرخون في زمن تأليفه ولكن اغلبها تجمع على أن الأمر تم فيما بين (١٥٠٠-١٠٠٠ ق.م)، ومعاصراً لدخول الآريين إلى الهند، ونهايتها قبل عصر بوذا.[٥] ومن الثابت أنه انتقل شفهياً قبل تدوينه لحقبة طويلة من الزمن، ثم دون حين استعملت الهند الكتابة.[٦]

الجمهوري)، إلى جانب نظام حكم ذاتي (البانشيات)، وبعد ذلك تتسع هذه الممالك لتكون امبراطوريات: الماجدي، الحضارة الهندية: ص ١٦٨-١٧٠.

(١) صليبا، اقدم كتاب: ص ٨٢.

(٢) H.D, Griswold., The Religion of Rig Veda, (Delhi: Motilal, 1971): p 54.

(٣) فليليسيان شالي، موجز تاريخ الأديان، ترجمة: حافظ الجمالي، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩١م): ص٧٠.

(٤) جبران مسعود، الرائد معجم لغوي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢م): ص ١٧٤ (مادة بصيرة).

(٥) جواهر لال نهرو، اكتشاف الهند، ترجمة: فاضل جكتر، (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٩م): ١/١١٤.

(٦) يذكر البيروني في فصل تحت عنوان (في ذكر بيذ والبرانات)، وبيذ هو فيدا عنده، أن فترة تدوينه قريبة من زمانه وتوفي هو سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، أي بمعنى أن تدوينه استمر حتى آواخر الألف الأول الميلادي: ابو الريحان محمد بن احمد، تحقيق ما للهند من مقولة

ينقسم الفيدا إلى قسمين:

القسم الأول الشروتي (وهو رؤى البصّارين الأبدية والغير مشخصة). وينقسم بدوره إلى: منترا وتضم السمهيتا الأربع (ريك فيدا–ياجور فيدا–ساما فيدا–اتهارفا فيدا)، والبرهمانا والتي تتألف من (الأوبانيشاد–الأرنياكا–البرهمانا).

والقسم الثاني السمرتي (تستمد سلطتها من الشروتي ويدخل فيها العنصر البشري). ويشتمل على مجموعة القوانين والشرائع (منوسمرتي)، والانظمة الفلسفية الستة، والملاحم (البورانات).[١]

يُشار إلى أن الهند بدأت التدوين في القرن (٨ ق.م)، واقتصرت على المعاملات التجارية والعقود، شأنها في ذلك شأن الحضارات الأخرى، وربما هذه النصوص كانت تُحفظ في المعابد، أما فيما يخص النصوص الدينية فكان يتم تدوالها شفهياً في بادئ الأمر كما ذكرنا ذلك آنفاً ولقرون طويلة، وتفسيرها وانشادها كان حكراً على الكهنة (البراهمة)، وهذا الدور سيعزز سلطتهم ونفوذهم بالمستقبل.[٢]

فيما يخص طبقية المجتمع الهندي قبل تواجد الآريين وظهورهم على مسرح الاحداث وتوسّع نفوذهم، فلا تتوفر لنا معلومات أكيدة، بإستثناء مايمكن تخمينه من خلال التنقيبات الآثارية في حضارة وادي السند، كممارسات الدفن فيها وكذلك استخدام الحلي وادوات الزينة نستطيع أن نلمح وجود نخبة هرمية في المجتمع السندي،[٣] والذي يمكن القول أنه كان قائماً على نظام قبلي اساسه رابطة الدم والتي اعتمدت في اقامة السلسلة الهرمية الإجتماعية، والتي تنوعت فيه التخصصات الحرفية، وربما كانت هذه السلسلة الهرمية الإجتماعية الاساس للنظام الطبقي اللاحق، الذي شكّلت فيه طبقة البراهمة اعلى سلطة، ويعتقد أنهم كانوا احفاد الطبقة الحاكمة المحلية السابقة في الحضارة السندية، وشأنها في ذلك شأن الحضارات المتواجدة في

مقبولة في العقل او مرذولة، ط١، (بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر، ٢٠١١م): ص ٨٨–٩٥.

(1)Robert Kfoury, Les Six Systemes de la Philosophie hindoueans le contexet de la trdition vedique, (Beyrouth: Extasis, 1986): p 5.

(٢) البير ثويتزر، فكر الهند ومفكري الهند على مر العصور، ترجمة: يوسف شلب الشام، ط١، (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٩٤م): ص ١٥٢–١٥٣.

(3)Gregorg Possechi., The Indus Civilizeation, (New Delhi, 182): p124; Jane Melntosh., A Peaceful Realm: The Rise and fall of Indus Civilizeation, (Boulder, Co, 2020): p 129.

منطقة الشرق الاوسط، والتي كانت تربطهم بهم علاقات واواصر تجارية، اضافة إلى تأثر الآريين بنظم المناطق التي يتواجدون فيها ويمتد نفوذهم اليها.(١)

يعود النظام الطبقي الهندي الحالي في جذوره إلى الفيدا وتحديداً الريك فيدا، فأساسه ديني فلسفي يعتمد على فكرة نقاء الطقوس والتلوث وعلى مفاهيم السلوك الصحيح والولادة الثانية القائمة على مفهوم النظام الكوني والذي يعبر عنه مفهوم الكارما،(٢) ومفهوم الرتا،(٣) والقائمان على ركن التناسخ(٤) والولادة الثانية أو الجديدة في الفكر الديني الهندي، وتكون هذه العملية منظمة بشكل هرمي وغير مترابطة ومتمايزة عن بعضها. إذ تعتمد طبقية الولادة الجديدة بعد وفاة الفرد على طبيعة عمله في الحياة الأولى والطبقة التي ينتمي اليها.(٥) فالطبقات الثلاثة الاولى (البراهمة والكشتارين والويش) هم مولودون ثانية، اما الشودر فمولود مرة واحدة، اي لايحق لروحه التطهر للانتقال للطبقة التي تليها وهي الخامسة، إذ لايوجد

(١) روبنسون، حضارات السند: ص ١٦٢.

(٢) الكارما: كلمة سنسكريتية تعني الفعل، اختلف في مفهومها حسب المدارس الفلسفية الهندية، وهي الحالة الجديدة التي تصير عليها الروح بعد موت الجسد وتتوقف على طبيعة افعالها في الحيوات السابقة. فهناك حيوات عديدة لاتنتهي ودورات كونية، وكل دورة تتألف من اربعة عصور: منوسمرتي: باب خلقة العالم، فقرة ٧٠، ص ٣٠-٣١.

(٣) نظام في الهندوسية يعني مبدأ النظام الطبيعي الذي ينظم عمل الكون وكل شيء فيه: روبنسون، حضارات السند: هامش ١، ص ١٦٢.

(٤) بالسنسكريتية سمسارا، ومعروف لدى الهنود بلفظ بنرجنم، ومعناه ان الكائن يولد على هذه الارض وعليها يموت وعندما يموت هنا يولد هناك. وهو مركب لفظ معناه تناسخ الارواح او انتقال الارواح. وسببه عند الهندوس يعود الى ان الروح خرجت من الجسم ولاتزال لها اهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد، وهذه الروح خرجت من الجسد وعليها ديون كثيرة في علاقاتها مع الآخرين. وهي عمليات متتابعة من الموت والولادة حتى تحقق الخلاص: ابو عبدالرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي، (د.م: دار ومكتبة هلال، د.ت): ٢٠١/٤؛ سميث، اديان العالم، المرجع السابق: ص ١٠٩؛ حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية عرض تاريخي، (دمشق: دار الفكر: المطبعة العلمية، ١٩٨٦م): ص ٧١-٧٢.

(5)Wendy Donider., KARMA and REBIRTH in Classical Indian Traditional, (USA: Universty of California Press, 1980): p 3-37.

طبقة خامسة ولايحق له الانتقال للطبقات الثلاث الأولى، (ان البراهمة والكشترين والويش هم مولودون ثانية واما الشودر فهو مولود مرة واحدة وليس هناك فرقة خامسة).[١]

لهذا كانت فكرة الطهارة الجسمانية والروحية هي محور فلسفة الطبقات وقد أُخذت في الأصل من البيئة التي كان يعيش فيها الآريون.

أشار الريك فيدا إلى تفوق العنصر الآري على جميع عناصر السكان الأخرى بالقول (فرقَ اندرا جيوشا الداسا... وخلق الأرض والماء للإنسان الآري وحقق آمال المُضحي).[٢] ويشير أيضاً إلى أن الإله اخرج من رأسه اول برهمي، ومن ذراعيه اول كشاتري، ومن ساقيه اول فيشي (ويشي)، ومن قدميه اول شودري.[٣] وبناءً على ذلك قسمت اعمال الطوائف الهندية وادخلت الجنس واللون في هذا التقسيم الذي وضعه الريك فيدا لغرض صلاح العالم وفلاحه.[٤]

لقد أوجد الإله الهندوسي في الفيدا نظام الطبقات الأربع وفق توزيع الأهواء والأفعال والحرف والأعمال.[٥] ووفقا للصفات التي ولدتها الطبيعة،[٦] والصفات المنبثقة منها. وشمل هذا التصنيف حتى الألهة إذ خلق البراهمن الآلهة وصنفهم إلى الهة دين والهة حرب وتجار وخدم.[٧]

لم يتسم هذا النظام الطبقي بالنسق الإجتماعي أو التكامل لأنه لم يشر إلى حالة التفاعل القائمة بين طبقاته لا الزمان والمكان، إلى جانب اتخاذه خاصية الغطاء الديني في مواجهة اجتماعية وثقافية اساسها الاستعمار وفرض الهيمنة الآرية على السكان الأصليين والدرافيدين، واتسامه بالعرقي العنصري، إذ انتحل الآريين لنفسهم في هذا التقسيم المراتب الثلاث العليا وخاصة الأولى (رجال الدين البراهمة)، وتم هذا الأمر على اعتبار الآريين انفسهم بانهم العرق

---

(١) منوسمرتي: مخلوطو النسب، فقرة ٤، ص ٥٨٣.

(٢) الكتاب ٢، ترنيمة ٢٠، الابيات ٦-٧.

(٣) المصدر نفسه: الكتاب ١٠، ترنيمة ٩٠، البيت ١٢.

(٤) منوسمرتي: باب خلقة العالم، فقرة ٨٧، ص ٣٧.

(٥) الباجافادجيتا الكتاب الهندي المقدس، ترجمة: رعد عبدالجليل جواد، ط١، (سورية- اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م): الفصل الرابع الاتحاد عبر المعرفة، فقرة ١٣، ص ٥٠.

(٦) هذه الصفات هي: العمل والمعرفة والشهوة والمثابرة واللذة: الكيتا: النشيد ١٨، الفقرات ١-٤٠، ص ١٣٣-١٣٨.

(٧) عبدالسلام زيان، الاوبانيشاد، ط١، (القاهرة: شمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م): كتاب بريهادارنكيا، ١٠/١٥٠.

الأسمى بسبب لون بشرتهم الابيض. وكذلك معتبرين انفسهم انهم الشعب الاكثر تطوراً وتفوقاً عسكرياً وإدارياً واقتصادياً. فقاموا بدمج عدد كبير من المجموعات المحلية والعرقية في مخطط التسلسل الهرمي الإجتماعي الذي أصّل له الريك فيدا، وفرضوه على الجميع، واصبح التسلسل الهرمي الإجتماعي القائم على العرق هو جوهر النظام الإجتماعي الهندي.(١)

وقد احتكرت طبقة رجال الدين تعليم الويد وممارسة الطقوس والشعائر والقرابين بيدها وفرض امتيازاتها، ووضع الفواصل بينها وبين باقي افراد الشعب الهندي، حيث كرّس هذا النظام بصورته التقسيمية الطائفية والعرقية على أرض الواقع. يضاف لها قوانين منوسمرتي والتي ستحدد واجبات وحقوق كل طبقة تكريساً له.(٢)

نلاحظ في هذا النظام أن الافراد متساوون من حيث الولادة ولكنهم غير متساويين بامتيازاتهم ضمن الطبقة الواحدة، فمثلا طبقة البراهمة الفئة العليا منهم هي من تعرف البراهما، وآخرين يعلمون الويد والاحكام، وفيهم من لايعرفها، ومنهم من يقوم بمراسيم ولادة المولود الجديد، وغيرهم،(٣) ومن هذه الامتيازات حصل البراهمة على امتياز السيادة على العالم كله.(٤) وكذلك بالنسبة لطبقات الكشتارين والويش والشودر فقد وصفت واجباتهم التي يجب القيام بها تجاه الطوائف الأخرى.(٥)

يعتبر هذا النظام نظام عنصري مغلق يمنع الانتقال بين الطبقات والتزاوج بينها محدود، وإن حصل فأنه سينتج مواليد ذات تسميات خاصة لفرق دينية خاصة، فمثلاً المواليد الذين يولدون من ابوين بكرين من فرقة واحدة فينسبون لفرقة ابيهم الدينية.(٦) أما المواليد الذين يولدون من اب اعلى من فرقة امهم فينسبون لفرقة ابيهم إلا أنهم يكونون ملامين بالخطيئة الأرثية التي لحقت امهم.(٧) والمولود الذي يولد من تزاوج اب برهمي ومن أم ويشية فيسمى (ابنشت)، والمولود الذي يولد من اب كشري وام برهمية فيسمى (سوت)، وهكذا.(٨)

---

(١) زيعور، الفلسفة في الهند: ص ١٢١.

(٢) منوسمرتي: باب خلقة العالم، الفقرات ٩٤-١٠٣، ص ٣٧-٤٠.

(٣) المصدر نفسه: باب خلقة العالم، فقرة ٩٧، ص ٣٨.

(٤) المصدر نفسه: مخلوطو النسل، فقرة ٣، ص ٥٨٣.

(٥) المصدر نفسه: باب خلقة العالم، الفقرات ٧٩، ٩٠-٩١، ص ٣٧.

(٦) المصدر نفسه: باب مخلوطو النسل، فقرة ٥، ص ٥٨٣.

(٧) منوسمرتي: باب خلقة العالم: باب مخلوطو النسل، فقرة ٦، ص ٥٨٣.

(٨) المصدر نفسه: باب مخلوطو النسل، الفقرات ٨-١٠، ص ٥٨٣-٥٨٦.

أسس تحويل النظام الطبقي من صورته النظرية إلى واقع الحياة الفعلي

ويُبطرح سؤال مهم جداً وهو: ماهي الأسس التي اتبعها الآريين لتحويل النظام الطبقي من صورته النظرية في الكتب الدينية الهندية إلى صورة عملية على ارض الواقع وجعلت جميع اطياف الشعب الهندي ترضخ له؟.

تعد الاجابة على هذا التساؤل من اعقد الموضوعات المطروحة واكثرها خلطاً وتشويشاً في التاريخ. فهجرة الآرين في الألف الثاني قبل الميلاد إلى الهند حاملين معهم معتقداتهم الدينية والثقافية وملامحهم الجسمية، كل ذلك كان له دور في تثبيت اسس هذا النظام على واقع الأرض الهندية، وازدهاره ونموه، وساهمت عوامل عديدة في ذلك منها الأختلافات العرقية والجسمية واللونية، وإضافة الأسر المهنية والصناعية، والتجار، والنقابات، والتقييدات الحجرية الصحية بين المجموعات الأقل تعرضاً للأمراض، والتحريمات السحرية الدينية (النجس والطاهر)، كلها تظافرت في تطبيقه على أرض الواقع ونموه وتطوره.[1] لتأتي بعدها قوانين منوسمرتي وتكرسه كما اوضحنا آنفاً، يضاف لها عقيدة التناسخ التي تعتبر أرومة هذا النظام، وكذلك نظام الكارما كما ذكرناه سابقاً.

من خلال المادة التاريخية المتوفرة تحت أيدينا تم إستقراء بعض هذه الأسس وكالآتي:

١* وحدة العقيدة الدينية

تعتبر المعتقدات الدينية في الهند أس جميع النظم الإجتماعية ومنها طبقية المجتمع. والنظم الإجتماعية هناك هي في حقيقتها نظماً دينية. فاللدين دور كبير في حياة الشعوب قاطبة. ونتيجة غلبة النزعة الدينية على التفكير الإجتماعي الهندي تم ربطه بالفلسفة.[2]

توضح لنا الآثار المادية لحضارة السند أن السكان الأصليين عبدوا قوى الطبيعة، مثلهم مثل كثير من الحضارات المتزامنة معها، اضافة لعبادة الأصنام والأوثان، البعض منها كان عارياً من اللباس وربما في ذلك اشارة إلى أن النجاة لاتحصل مادام الإنسان يعيش حياة دنيوية بكافة ملذاتها، ومجموعة اخرى منها محلاة بالحلي والملابس.[3] كذلك عبادة بعض الحيوانات المقدسة كالثور، واصنام الألهة الأم، والتي مجدت فيما بعد بالفيدا تحت اسم (بارفاتي)، أي الألهة العظيمة الأم، وكالي السوداء، وعبادة كائنات اليوغي الخارقة لقوى

(١) سميث، اديان العالم: ص ٩٦ (بتصرف).

(٢) لوبون، حضارات الهند: ص ٢٥٥.

(٣) يعتقد أن هذه الأصنام من اعمال فرقة الإله فشنو التي تهتم بالمظاهر الخارجية وبملذات الحياة: محمد اسماعيل الندوي، الهند القديمة حضاراتها وديانتها، (مصر: دار الشعب، ١٩٦٩م): ص ٤٥.

الطبيعة سيد القطيع وهو يشبه إلى حد فيما بعد ما الإله شيفا.[١] وعثر على مجموعة من الأحجار بشكل عضو الذكر (لنج)، والعضو الأنثوي (يوني)، أي عبادة القضيب (اللينغا)، فلنج شيفا ويوني باراواتي (زوجة شيفا)، رمز لخلق العالم بالتقائهما. وقد ندد الريك فيدا بهذه العبادة إذ وصف السكان الأصليين وعبادتهم هذه بِـ (الأرواح الخبيثة التي تعبد لنج).[٢]

وكانت الطقوس الدينية للحضارة السندية تتم تحت إشراف الكهان عن طريق الاستحمام في حوض كبير للماء يأتيه الناس من اقاصي ارض الهند للعلاج، وبالقرب منه تتم هذه الطقوس، وبنيت على اطرافه ثماني غرف صغيرة تابعة للمعبد، وفوق كل غرفة تقع صومعة خاصة بالكهان. وطقس الاستحمام من الطقوس الدينية في هذه الحضارة، ويعتبر الاساس الذي سيتخذه الآريون فيما بعد كطقس الاغتسال المقدس بالأنهار المقدسة كنهر الكنكا.[٣]

اما بالنسبة لعبادة الآريين يمكننا أن نستخلص من نصوص الفيدا نوعين من العبادة: عبادة الأسلاف اي على الأبناء تقديس الأباء والاجداد بعد موتهم الذي سيضفي عليهم قدسية تحولهم لنوع من القوى الخفية التي ترعى شؤون احفادهم الأحياء وتجلب لهم النفع وتدفع عنهم السوء. وفي مقابل ذلك على الأبناء تقديم الاضحيات والقرابين لهم حتى يحافظ الجد على كيان الأسرة. والأبن وحده هو من يؤدي هذه الشعائر، باعتباره ربّ الأسرة وكاهنها، وهذه الطقوس كانت تقام في المنازل.[٤]

أما النوع الثاني من عبادة الآريين هو عبادتهم لقوى الطبيعة بإعتبارها مظاهر لقوى خفية، وعدد هذه الإلهة في الفيدا (٣٣) الهاً، موزعين بالتساوي على أقسام الكون الثلاثة: السماء العليا–الجو الأوسط–الأرض السفلى. وأهم هذه الألهة الإله (اندرا) إله الحرب،[٥]

---

(١) جيفري بارندر، الجنس في اديان العالم، (دمشق: دار الكلمة، ٢٠٠١م): ص ١٤.

(٢) المصدر السابق: ٩/٥/٢١.

(٣) الندوي، الهند القديمة: ص ٣٦–٣٧.

(٤) فالح شبيب العجمي، صحف ابراهيم جذور الإبراهيمية من خلال نصوص الفيدا ومقارنتها بالتطبيقات والروايات التاريخية، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٦م): ص ١٣–١٤.

(٥) اعظم الآلهة عند الآرين فهو يمثل روحهم المنتصرة سليل الابطال المغاوير الاشداء في القتال. جميل المظهر اشقر، صاحب اذرع طويلة ويركب عربة حربية ذهبية اللون يجرها زوج من الخيول الشقر ويمسك في يده اليمنى مختلف الاسلحة واقواها البلطة الصاعقة. وهو الإله الذي يحارب الاعداء في الارض والشياطين في الجو ويرافقه زميله فيشنو: الاوبانيشاد، المصدر السابق: الجزء الثالث كينا، ص ٥٩.

وآجني (إله النار والقرابين)، وسوريا (الشمس)، والقمر (سوم)، وهذه العبادات كانت تقام في الخلاء وليس في معابد.[١]

دخل الآريون في سلسلة حروب تعتبر بنظرهم مقدسة مع الداسا والدرافيديون من جهة، ومع القبائل الآرية من جهة أخرى، منتهية بفشل تحقيق وحدة سياسية واحدة أو تشكيل اتحاد كونفدرالي، الأمر الذي ادى إلى اضعاف الوعي القبلي لصالح التنظيم الإقليمي والملكي، كل ذلك دفعهم للتفكير بايجاد وحدة بديلة تنضوي تحتها جميع شعوب الهند بمختلف مشاربها، فجاء القرار بالوحدة الدينية. فعمدوا إلى اقتباس معظم عقائد اهل الهند الاصليين الحضارة السندية)، وصبغوها بالصبغة الآرية، مع مراعاة عدم قلع جذورها، ولكن مزجها مزجاً قوياً بمعتقداتهم الآرية. ومن التقاء هاتان الحضارتان نشأ مذهب جديد مازالت عليه الهند إلى اليوم، على الرغم من حركات التجديد التي شهدها، ويعرف بـِ (الهندوسية).[٢] وهذا المزج تم في الفيدا بعد تدوينه.[٣]

٢* توحيد اللغة والثقافة

عرفت الهند بالعدد الكبير في اللغات المتحدث بها هناك، فهي تتجاوز الـ (٣٥٠) لغة، فادى هذا التنوع اللغوي إلى اثراء الفكر الهندوسي وتنوع موارده الثقافية التي خدمت مساعي الآرين في توحيد الهند عن طريق تحقيق الوحدة الدينية. وعلى الرغم من هذا العدد اللغوي الكبير إلا انهم لجاؤا إلى اعتماد اللغة السنسكريتية (الهندو–ايرانية) في تدوين الفيدا وتعليقاته وشروحاته.[٤]

---

(1)R.E.O. Martin., The Gods of India, (New York: E.P. Dutton & Co. Mcmxiv, 1913): p 26-34.

(٢) وهي اسلوب حياة اكثر من كونها عبادة وعقيدة، لاتوجد لها اطر محددة ففيها من العقائد مايصل لعبادة الاحجار، ومنها ما يرتفع للتجريدات الفلسفية الصافية، اختلف بمكان انتشارها، قيل انها انتشرت من شمال الهند إلى باقي مناطق شبه القارة الهندية في مدة لاتتجاوز ٣٠٠ عام، وقيل انها ولدت في جنوب الهند وانتقلت للشمال على يد الحكيم شاماكارا البرهماني: ثويتزر، فكر الهند: ص ١٥٢–١٥٣.

(٣) زيعور، فلسفة الهند: ص ١١٤–١١٥؛ ثويتزر، فكر الهند: ص ١٥٢–١٥٣.

(٤) لويس زينو، آداب الهند، ترجمة: هنري زغيب، ط١، (بيروت–باريس: منشورات عويدات، ١٩٨٩م): ص ٧.

تميزت اللغة السنسكريتية عن باقي اللغات المتداولة على أرض الهند بكونها لغة الفكر الديني الآري، إلى جانب عدد من اللغات الأخرى المشتقة منها كاللغة البالية.[١] إلا أنها ظلت لغة الطقوس الدينية ولغة الفيدا. وهذه اللغة كانت حكراً على رجال الدين البراهمة وبها كانوا يرددون تراتيلهم الدينية الفيدية والتي احدثت تطوراً كبيراً في الفكر الديني الهندي.[٢]

إن استخدام اللغة السنسكريتية في تدوين المعتقد الديني منحها ديمومة وتجانس فلسفي، ولكن في المقابل قاد هذا الأمر إلى ندرة التجديد والأصالة الفردية، وكان من نتيجة ذلك أن اغلب المدونات كانت عبارة عن شروحات وتعليقات وتقميشات وتكرار للفيدا أو الأساطير.[٣] ورغم ذلك ساهم توحيد اللغة في الفكر الديني في تجانس الفكر الهندوسي ونفوره من التجديد مما قاد إلى اضفاء صفة القدسية على اللغة السنسكريتية واللغات المتفرعة منها.[٤]

خلاصة القول: بسيادة اللغة السنسكريتية على باقي اللغات الهندية ادى إلى احاطتها بهالة من القدسية اكتسبتها بكونها لغة الدين، ورجال الدين البراهمة، ولغة اسفار الفيدا وشروحه والبورانات. ومن هذا المنطلق وحدت اقواماً مختلفين وحافظت على النسق الروحي الهندي والتساوق الفكري والإجتماعي، مستمرة في حمل شعلة الحكمة والفلسفة والعقائد الدينية الهندية.[٥]

---

(١) وهو احدى لغات الهندو-اوربية: تشارلز بيري، القاموس التاريخي للحثيين، (ISBN 0810865645، ٢٠٠٤م).

(٢) كامل سعفان، موسوعة الاديان القديمة، معتقدات اسيوية، ط١، (القاهرة: دار الندى، ١٩٩٩م): ص ٥٨.

(٣) زيعور، فلسفة الهند: ص ٨٦.

(٤) يعتقد ان حروف الخط السنسكريتي (ديفناغاري) ذات اصل فينقي كنعاني: المرجع نفسه: ص ٨٧.

(٥) المرجع نفسه: ص ٨٧.

العلاقة بين السلطة الروحية والزمنية ودورها في تمايز النظام الطبقي الهندي

عرفت الهند بتعدداتها العرقية والدينية واللغوية، وتعد من اكبر المعوقات التي اعترضت الأريين خلال مساعيهم لبسط هيمنتهم وتوسيع مناطق نفوذهم في شبه القارة الهندية، وعلى اجناسها المختلفة. وفي الوقت الذي فشلوا فيه في تحقيق الوحدة السياسية كما ذكرنا ذلك آنفاً، لجاؤا الى تحقيق الوحدة الدينية، وهذا الأمر لم يتم في العصر الفيدي، بل سيتحقق في العصرين التاليين له.

إن المحاولات التي جرت من قبل الأريين في توسيع النفوذ أدت بهم إلى العمل على تحويل نظام الطبقات الإجتماعية واخراجها من الإطار النظري؛ والذي أسست له كتب الفيدا، إلى واقع الحياة الفعلي. سيدفعنا هذا الأمر للتساؤل: كيف تم هذا الأمر؟ ومن هذا المنطلق سنحاول الاجابة عن هذا التساؤل على ضوء العلاقة بين السلطتين الروحية والزمنية وكما يلي:

أولاً: منطقة الغانج في العصر الملحمي نقطة انطلاق لتمايز النظام الطبقي الهندي

كان الأريون في العصر الفيدي قد استقروا حول نهر السند وروافده في منطقة البنجاب، وهناك دخلوا في صراع مع السكان الاصليين والدرافيديين، وشمل الصراع أيضاً القبائل الأرية نفسها، وكان من نتيجته انتشار القبائل الآرية المختلفة في البنجاب، وشيدت المدن والممالك المتنافسة فيما بينها على مد وتوسيع مناطق النفوذ، وانتشرت القبائل الأرية هناك، ودخلت في تحالفات وصراعات فيما بينها، واستعانوا بالألهين (اندرا و فارونا) في تحقيق النصر على الاعداء.(١)

نلاحظ انه رغم الصراعات السياسية والحروب إلا أن الآريين في البنجاب في العصر الفيدي كانوا كالجسد الواحد، وانتشرت الحضارة الأرية على هذا الاقليم باكمله، فكان تاريخ وادب الهند في هذا العصر هو تاريخ وحضارة البنجاب (الادب الفيدي)، ولم تعرف الهند حينها نظام الطوائف وتمايزه على ارض الواقع، ولكن مايسجل لهذا العصر هو نتيجة الحروب الطويلة التي خاضها الآريين قوَيَ نفوذ المحاربين (الكشتاريا)، ورغم ذلك النفوذ إلا أنهم لم ينفصلوا بطبقة خاصة بهم ويستقلوا عن باقي افراد الشعب الهندي.(٢)

أمتد النفوذ الآري الى منطقة الغانج في العصر الملحمي بعد حالة الاستقرار التي شهدتها البنجاب في العصر الفيدي. وظهرت الممالك في شمال الهند، لتدخل هذه الممالك في حروب ونزاعات كانت مادة لملحمتي المهابارتا و الرامايانا، وانحصرت هذه الحروب بين اربعة قبائل

---

(١) الريك فيدا: الكتاب ٧، الأبيات ١-٦؛ الكيتا: النشيد الأول (ميدان المعركة) كوروكشيترا، الفقرات ١-٤٦، ص ٢٨-٣٣.

(٢) لوبون، حضارات الهند: ص٢٠٨.

كبرى شكلت ممالك وهي: كورو و بانكالا (في اعلى الغانج)، وهم ابطال ملحمة المهابارتا،[١] الكوسالا و الفيديها (شمال مدينة بيهار) وهم ابطال الرامايانا.[٢] وبعد تمدد الأريين الى منطقة الغانج ستفرض الهندوسية ونظمها وقوانينها، فتحولت الهند باكملها نحو الهندوسية قبل القرن الرابع قبل الميلاد.[٣]

تعتبر الأسرة الاساس في المجتمع القبلي الآري، وكان ربّ الاسرة هو السيد والمزارع والمحارب. وكانت عبادة الأريين قائمة على عبادة الاجداد وتقديم القرابين لها، وكل ذلك يقوم بها الكاهن، فربّ الأسرة هو كاهن الأسرة ومن يقوم بتلك الطقوس، والتوسع الآري في الغانج، وتوسع الملكيات الفردية ،وتحول المجتمع الآري من قبلي إلى قروي، وظهور التجمعات والتي عرفت بالجمهوريات، ثم ظهور المدن والممالك، كل ذلك أدى إلى تعقد الحياة وظهور اصحاب المهن التخصصات المهنية المختلفة، وسيتحول دور الكهانة من ربّ الأسرة إلى يد كاهن مختص ومرتبط بالملك.[٤] ونتيجة للحروب الطويلة التي خاضها الآريين ازداد نفوذ المحاربين (الكشتاريا)، كما وضحنا ذلك اعلاه، فشعر الكهنة بخطر هذا الأمر فاندفعوا نحو التفكير بعزل أنفسهم بطبقة مستقلة عن باقي أفراد الشعب الهندي، بعد العمل على تقوية نفوذهم عن طريق توسيع صلاحياتهم وترأسهم للسلطة الدينية بعد جعلها بأعلى هرم السلطة.[٥]

ثانياً: التعاليم الفيدية-الاوبانيشادية ودورهما في تعزيز سلطة البراهمة واستقلالها

يؤمن الهندوسي باعتقاد أن تعاليم الدين تهمين على جميع مفاصل ومناحي حياته الإجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية. وكل مفصل من هذه المفاصل يخرج عن إطار الدين يعتبر عنده باطلاً، فالدين عنده هو موجه الحياة. ومن هذا المنطلق ألبس التقسيم الاجتماعي للمجتمع الهندي لبوس الدين، وبذلك غلبت النزعة الدينية على الفكر الإجتماعي الهندي. ومن خلاله تم توظيف العلاقات الإجتماعية والوظيفية،[٦] وخاصة فيما يخص مصالح طبقة رجال الدين (البراهمة)، إذ تم توظيف العامل الديني من قبلهم لإضفاء صفة القداسة على انفسهم، والتي استمدوها من خلال خدمتهم للإله براهما، ومرتكزين في ذلك على

(١) ينظر: المهابارتا، المصدر السابق.
(٢) ينظر: الرامايانا، المصدر السابق.
(٣) ثويتزر، فكر الهند: ص١٥٢-١٥٣.
(٤) لوبون، حضارات الهند: ص٢٦٢.
(٥) المرجع نفسه: ص١٩٢.
(٦) المرجع نفسه: ص١٩٢.

كتابهم المقدس (الفيدا). وسنحاول في الفقرات القادمة توضيح كيف استطاعوا تعظيم سلطتهم على جميع الجماهير الهندية، وتمييز أنفسهم بطبقة تعتلي هرم طبقية المجتمع الهندي.

المجتمع الآري مجتمع قائم على النظام القبلي تحتل فيه الاسرة والعرق حجر اساس التنظيم الإجتماعي، مجتمع غير طبقي، عبادة الاسلاف ومظاهر الطبيعة العبادة الشائعة فيه، وهي عبادة قائمة على طقوس خاصة وتقديم القرابين لأرواح الاجداد، لذلك من كان يقوم بها هو رب الاسرة بإعتباره كاهنها، والام من تقوم بصنع شراب السوما المقدس.(١) وفي ظل هذا المجتمع القروي تعتبر الاسرة الكبيرة هي اصل الوحدة الإجتماعية، لذلك خلا هذا المجتمع من إنحسار السلطة بيد شخص واحد سواء كان حاكماً أم ملكاً. لكنهم في ظل الحروب التي خاضوها كانوا ينقادون لقائد واحد. وبعد تحوّل المجتمع من قبلي قروي إلى مدنٍ وممالك وامبرطوريات، سيظهر منصب (القائد الملك)، وإلى جواره الكاهن، وكلاهما يُختاران من علية القوم.(٢)

يعدّ الإله (اندرا) من اشهر الهة الريك فيدا، فهو روح المقاتلين الأريين المحاربين، ومن سلالتهم المقاتلة، وهو من اعانهم على النصر في معاركهم، الإله الاشقر الذي يحارب اعدائهم، فقد حارب ابناء الظلام (الداسا)، ودمر مدنهم وقراهم وطردهم إلى الغابات والجبال.(٣) ومن حارب شياطين الجو التي تسبب الفيضانات والجفاف والاوبئة، فاشعلت له مواقد النار؛ والتي يرمز لها بالإله (آجني)، لتلقى فيها القرابين وشراب السوما.(٤)

ونظراً لدوره التدميري في البنجاب وتشريده للسكان الاصليين، وتعالي الأريين على الشعب الاسمر اتت ملحمة المهابارتا وانزلته من عليائه وجعلته إلهاً من الدرجة الثانية، واضفت عليه صفة ارتكاب الأثام والخطايا فنفته والزمته باعتزال الناس وتقديم القرابين وتمت هذه العقوبة عليه خاصة بعد قتله لاحد النساك الزهاد.(٥) وجاءت ملحمة الرامايانا لتكمل مابدأته المهابارتا. فكان اندرا إله رجال الحرب، الذي تقدم له القرابين عن طريق (الإله آجني)، الذي يشرف على خدمته رجال الدين، ومن اختصّ الكهان بتقديم القرابين المقدسة، واصبح

---

(١) وهو شراب مسكر من نبتة لم يتم تحديدها، وهذا الشراب استعمل في الازمنة الفيدية للاحتفالات والطقوس الدينية. وفي اعتقادهم انه له القدرة على منح الخلود، واستعمل في ذبائح الإله اجني: صليبا، اقدم كتاب: ص١٦٨.

(٢) واحيانا كان الملك هو الكاهن: الريك فيدا: الكتاب ٧، الابيات ١-٦.

(٣) المصدر نفسه: الكتاب ٢، ترنيمة ٢٠، الابيات ٦-٧.

(٤) الاوبانيشاد: الجزء الاول كاتا والموت، ص ٣٦-٣٧.

(٥) المصدر نفسه: الجزء الثالث كينا، ص ٥٩؛ صليبا، اقدم كتاب: النشيد الثاني سوكتا ٢، ص ٢٧٨.

اجنـي فـي مقدمـة الألهـة الآريـة. واحيطـت الطقـوس الدينيـة والقـرابين بـالغموض والتعقيـد، فإحتكرها رجال الدين لأنفسهم عن الناس، فاعطاهم هذا الأمر التعظيم والهيبة بين جموع الشعب، فازداد نفوذهم واشتدّت شوكتهم وقويت، فتوجوا الإله (برهسباتي، براهما)، واضافوه للألـه الفيديـة الـ (٣٣)، واضافوا عليه صفات الإلهين اندرا وآجني، فاصبح إله رجال الدين الإلـه الخـالق الـذي اخـذوا منـه تسميتهم، وهـو مـن قسمهم لطبقـات كـل حسب وظيفتـه التـي يؤديها،[١] وهو اعلى إله في طبقة الألهة الثلاثة (الثالوث المقدس، تري مورتي).[٢]

سؤال يُطرح هنا في هذا المضمار: كيف رضي او قبلَ افراد الشعب الهندي بقيام الكهان البراهمة بتقوية نفوذهم على حساب الطبقات الإجتماعية الأخرى وخاصة المحاربين الكشتارين؟ الأمر يعود لما عانته مختلف عناصر البنية الإجتماعية من حروب الكشاتريا وقسوتهم، لذلك تقبلوا البراهمة وازدياد وتعاظم دورهم بدون أي تذمر. ومن هنا أَمَنَ البراهمة جانب الكشتارين، ولم يتبق أمامهم من منافسين سوى الزُهاد والنُسّاك، فقد حاولوا أن يخطفوا ماحققّه هؤلاء النُسّاك من سمعة عالية بين جماهير الشعب الهندي، والتي سطّرتها الملاحم والاساطير الهندية ومجّدتها، إذ مجّدت فيهم حياة العزلة والزهد في الغابات وممارسة المجاهدات والرياضيات وخاصة اليوغا، والحكمة.[٣] وهذا التمجيد جعلهم يتجاوزون التفكير بنسب هؤلاء الزهاد أو اصولهم ومهن اسرهم، فالبعض منهم كان من الشودر، والبعض الآخر كانت اسرهم تزاول مهن تعتبر وضيعة في المجتمع الهندي. ومن هنا البراهمة بخطورة منافستهم لهم، فاخذوا يفكرون في كيفية الحد من نفوذهم بين المواطنين الهنود، بل أخذ

---

(١) البرهمن الذي يعلم الويد يسمى (اتشارج)، ومن يعلم الويد لغرض كسب العيش يسمى (ابادهيا)، ومن يقوم بطقوس الحامل واطعام المولود يسمى (كرو)، ومن يقوم بطقوس اشعال النار يسمى (رتوج): منوسمرتي: الباب الثاني دور التلمذة واحكامه، الفقرات ١٣٩-١٤٢، ص ٨٩.

(٢) ظهر هذا الثالوث في عصر البطولة (١٠٠٠-٥٠٠ ق.م.) وتري مورتي كلمة سنسكريتية من مقطعين (تري معناها ثلاثة، مورتي معناها اقانيم او هيئات): محمد طاهر التنير، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تحقيق: لجنة من المحققين، (بيروت: د.ن، ١٩١٢م): ص ٣٢-٣٣.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن حياة هؤلاء في الغابات وكيفية تلقين معرفتهم وحكمتهم للناس ينظر: ابو الريحان البيروني، كتاب باتنجلي الهندي في الخلاص من الارتباك، دراسة وتحقيق: المستشرق هلموت ريتر، (لبنان: جبيل، دار ومكتبة بيبلون، ٢٠٠٩م): ص ١٣٢-٢٠٣.

مكانتهم الاجتماعية، وخاصة أن هؤلاء الزهاد لم يدونوا تعاليمهم بل كانت تتداول بين الناس مشافهة عن طريق التلقين. فسلك البراهمة في ذلك مسلكين:

المسلك الأول: القيام بتلقين الفيدا أو الويد الأولى من جيل لجيل وتدريب ابنائهم وتلاميذهم على تعاليمها وعلى كيفية القيام بالطقوس والشعائر الدينية واحتكارها بهم وبابنائهم، وعمدوا الى تحقيق هذا الأمر عن طريق اضافة شروحات وتعليقات على كتب الفيدا الأولى وبما يتفق مع توجههاتهم، وهذه الكتب عُرفت بـ (البرهمانا)،[١] وتعد هذه كتب الفيدا الثانية. وكذلك عملوا على حصر مدارس تعليم الفيدا وشروحاته بابنائهم وتلاميذهم من طبقة البراهمة.[٢] وعن طريق هذه المدارس تم نشر نصوص الفيدا في الهند كلها، وتم جمع المجتمع الهندي بمختلف اجناسه على الطقوس والواجبات والشعائر الدينية ذاتها والنظم القانونية الآرية، فأنتشرت الهندوسية في شبه القارة الهندية بطرق سلمية.[٣]

اما المسلك الثاني الذي اتخذه او سلكه البراهمة هو إضافة الإله (براهسباتي) للآلهة الفيدية الثلاثة والثلاثون ليصبحوا ٣٤ الهاً. ففي الفترة الممتدة بين القرون (٨-٥ ق.م)، شهدت الهند هجرة آرية جديدة أمتدّ نفوذها الى نهر الكنكا، وشهدت الهند ظروف طبيعة قاسية من فيضانات في مناطق من الهند، وجفاف في مناطق أخرى، ومجاعات واوبئة، فازدادت دعوة البراهمة للجماهير الى حسن إداء الطقوس والشعائر الدينية وتقديم القرابين من اجل دفع البلاء

---

(١) كلمة سنسكريتية وتعني المفاهيم العلمية والفلسفية للفيدا، وتشرح رموزها، وهي نصوص طقسية تستند إلى التطبيق العملي. وتعتبر فئة من الادبيات التي تحتوي على قواعد التضحيات: صليبا، اقدم كتاب، المصدر السابق: ص٨٢؛ وقد حددت ووزعت ادوار الطبقات الاربع فالبراهمة واجبهم اداء التضحية وتشجيع الأخرين عليها، والكاشتريا حماية المواطنين والدفاع عنهم، وواجب البيش تقديم الطعام وكافة الخدمات المالية والتجارية للآخرين، ووظيفة الشودر خدمة الطبقات الثلاث الاعلى منهم: الرب كرشنا: ص ٥٧، ٧٧-٧٩.

(٢) قسموا الفيدا الى قسمين في التعليم الكهنوتي: الاول يعرف بـ (الشروتي وهو ماسمع أو الالهام) وبدوره ينقسم الى قسمين: المنترا ويتالف من سمهيتا و سوكتا. والثاني يعرف بـ (برهمانا وهي نصوص نثرية صوفية تتالف من ثلاثة انواع: الأوبانيشاد- الأرنياكا- البرهمانا). والقسم الثاني من الفيدا فيدعى السمرتي ويشمل (منوسمرتي وهو مجموعة القوانين والشرائع- الفيدانغا الستة- الفيدانتا الاربعة ((ريك فيدا- ياجور فيدا- ساما فيدا- اتهارفا فيدا))- وانظمة الفلسفة الهندية الستة الدارشاناس الستة- الملاحم (البورانا)). وعرفت المدارس التي ارتبطت بالفيدا بـ (سوترا وتعني الخيط)، وكان للريك فيدا ٥ مدارس، ٢٧ مدرسة للياجور فيد، ١٢ مدرسة للساما فيدا، ٩ مدارس للأتهارفا فيدا: صليبا، اقدم كتاب: ص٧٦-٩١.

(٣) ثويتزر، فكر الهند: ص ١٥٢-١٥٣.

والفيضانات والمجاعات عنهم، فأضافوا الإله براهبساتي (إله رجال الدين)، والذي جمع بين وظيفتي الإلهين اندرا وآجني، كما ذكرنا ذلك آنفا. والهند تعيش في هذا الوقت بالعصر الفلسفي، فأضافوا شروحات صوفية جديدة على الفيدا، وهي الشروحات الثانية لتعتبر هذه الشروحات كتب الفيدا الثالثة، والتي عُرفت بـ (الاوبانيشاد).[١] إذ استطاع البراهمة عن طريقها أن ينسبوا لأنفسهم إتجاهات زهاد الغابة الصوفية والفلسفية والروحية والفكرية. وبذلك استطاعوا أن يقبضوا بأيديهم على زمام العقيدة الدينية الهندية، وأن يُحَجِّموا النفوذ الروحي للزهاد والنساك في عموم الهند، وحصر تأثيره فقط بالغابات.[٢]

خطى البراهمة بعد إزلتهم لكل المعوقات التي اعترضت طريقهم للصعود إلى هرمية طبقية المجتمع الهندي، نحو الاستقلال بطبقة خاصة عن باقي الطبقات واعتلاء قمة الهرم، ثم يتبعهم الكشاتريا لفصل انفسم بطبقة المحاربين، وبعدها تبعهم الويش (التجار والمزراعين)، والشودر (الخدم) حذوا حذو الآخرين.

(١) اشتقت هذه الكلمة من الفعل "جلس او قرب" أو "وضعَ شيئاً بإزاء الأخر"، فهي تدل على الوضع جنباً إلى جنب بغية الربط. وهي اسفار صوفية لتفسير الفيدات. وفسرت نصوصه أن براهما خلق العالم على نحو دوري أي من نفسه وارجعه إليه. وتتم هذه العملية باحد الطريقتين: إما أن يكون براهما قد تحول إلى هذا الكون وما فيه من كائنات حية، أو أن يكون الكون وما فيه مجرد صور للبراهما: ثويتزر، فكر الهند: ص٣٥؛ زيعور، فلسفة الهند: ص١٢٧.

(٢) عبدالعزيز الزكي، "نشأة الفكر الهندي وتطوره في العصور القديمة"، مجلة عالم الفكر، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٧٠م): مجلد الأول، عدد الثالث، ص ٢٤٢-٢٥٢.

الخاتمة

توصل البحث إلى جملة من النتائج لعل اهمها:

١- أَصّلت كتب الديانة الهندوسية وخاصة الريك فيدا للنظام الطبقي الهندي ومن واقع عنصري عرقي.

٢- فشل الآريين في تحقيق الوحدة السياسية الأمر الذي دفعهم إلى جمع جميع الشعوب الهندية تحت مظلة وحدة العقيدة الدينية بما يعرف بـِ (الهندوسية).

٣- مرت الهند بعصور ثلاثة (الفيدي-الملحمي-الفلسفي)، رسخت لسيطرة الهندوسية، ويعتبر العصر الملحمي عصر تمايز الطبقات الإجتماعية وتحويلها من الواقع النظري إلى واقع الحياة.

٤- نتيجة للحروب التي خاضها الآريين سواء مع السكان الأصليين أو بين القبائل الآرية نفسها، أدى إلى ازدياد نفوذ طبقة المحاربين، الأمر الذي دفع برجال الدين البراهمة على العمل لتقوية نفوذهم ثم تمييز نفسهم بطبقة مستقلة عن جماهير الشعب الهندي، وجعلها في أعلى هرمية هذا التقسيم ومستغلين في ذلك تذمر الجماهير الهندية من نفوذ المحاربين (الكشتارين).

٥- الأساس الذي اعتمد في هذا التقسيم الطائفي العرقي، هو الاساس الديني إذ خلقت الطوائف الأربع من جسد الإله الخالق (براهما).

٦- سلك رجال الدين البراهمة مسلكين من اجل تعزيز نفوذهم، يتمثل الأول بالحد من نفوذ المحاربين الكشتارين وكذلك الزهاد والنساك، والمسلك الثاني يتمثل بحصر تعليم الفيدا وممارسة الطقوس الدينية وتقديم القرابين بيدهم وجعلها حكراً عليهم.

٧- اعتمد الآريين على اسس لتحويل هذا النظام من واقعه النظري للواقع التطبيقي وتعزيزه وذلك عن طريق تحقيق الوحدة الدينية، وكذلك توحيد اللغة والثقافة، واعتماد لغتهم السنسكريتية لغة تدوين الكتب المقدسة، ولغة تعليمه ولغة رجال الدين البراهمة.

٨- نظام الطبقات الهندي نظام مغلق تتحدد فيه المكانة الإجتماعية عند الميلاد وتبقى ثابتة لاتتغير.

٩- العلاقة المعتمدة مابين هذه الطبقات علاقة تبعية متبادلة. ولم يستطيع تحقيق الموازنة بين كفتي العدل والحكمة التي عرفت بها الهند (بلاد الحكمة)، وبين القوة المادية والمعنوية من جهة ثانية.

ثبت المصادر

أولاً: المصادر العربية

- ابو الليل، محمد مرسي، الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها، (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٠٦٥م).
- الأعظمي، محمد ضياء، دراسات في اليهودية والمسيحية واديان الهند، (الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م).
- اكوافيفا، انزو، علم الاجتماع الديني، ترجمة: عزالدين عنابة، ط١، (د.م: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠١١م).
- الباجافادجيتا الكتاب الهندي المقدس، ترجمة: رعد عبدالجليل جواد، ط١، (سورية- اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م).
- بارندر، جيفري، الجنس في اديان العالم، (دمشق: دار الكلمة، ٢٠٠١م).
- البيروني، ابو الريحان محمد بن احمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة، ط١، (بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر، ٢٠١١م).
- بيري، تشارلز، القاموس التاريخي للحثيين، (ISBN 0810865645، ٢٠٠٤م).
- التنير، محمد طاهر، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تحقيق: لجنة من المحققين، (بيروت: د.ن، ١٩١٢م).
- ثويتزر، البير، فكر الهند ومفكري الهند على مر العصور، ترجمة: يوسف شلب الثام، ط١، (دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٩٤م).
- حسين، عبدالله، المسألة الهندية، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م).
- الرب كرشنا، الكتاب المقدس الهندوسي، ترجمة: تقديم: الشيخ محمد علي الزعبي، (د.م: د.ت).
- روبنسون، اندرو، حضارات السند البائدة، ترجمة: د. مصطفى قاسم، مراجعة: د. محمد زياد كبة، ط١، (ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٧م).
- الريك فيدا الكتاب الهندوسي المقدس، www.sacred-texts.com/hin/rvsan/rvi01.htm. https:ll
- الزكي، عبدالعزيز، "نشأة الفكر الهندي وتطوره في العصور القديمة"، مجلة عالم الفكر، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٧٠م): مجلد الأول، عدد الثالث.
- زيان، عبدالسلام، الاوبانيشاد، ط١، (القاهرة: شمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م).

- زينو، لويس، آداب الهند، ترجمة: هنري زغيب، ط١، (بيروت–باريس: منشورات عويدات، ١٩٨٩م).
- سعفان، كامل، موسوعة الاديان القديمة، معتقدات اسيوية، ط١، (القاهرة: دار الندى، ١٩٩٩م).
- سعيد، حبيب، اديان العالم، (القاهرة: دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية، د.ت) .
- شالي، فليليسيان، موجز تاريخ الأديان، ترجمة: حافظ الجمالي، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩١م).
- صليبا، لويس، اقدم كتاب في العالم ريك فيدا، ط٣، (لبنان: دار ومكتبة بيبليون، ٢٠١١م).
- عبدالجبار، د. نبيل عبدالحميد ، تاريخ الفكر الإجتماعي، (د.م: دار دجلة، ٢٠٠٩م).
- العجمي، فالح شبيب، صحف ابراهيم جذور الإبراهيمية من خلال نصوص الفيدا ومقارنتها بالتطبيقات والروايات التاريخية، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٦م).
- العودات، حسين، الموت في الديانات الشرقية عرض تاريخي، (دمشق: دار الفكر: المطبعة العلمية، ١٩٨٦م).
- فالميكي، ملحمة الرامايانا، ترجمة: رياض الملاح، (ابو ظبي: المجلس الثقافي، ٢٠٠٣م).
- الفراهيدي، ابو عبدالرحمن الخليل بن احمد، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي، (د.م: دار ومكتبة هلال، د.ت).
- كبير، أ. د. همايون، التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، ترجمة: البروفيسور ذكر الرحمن، مراجعة: عمر الأيوبي، ط١، (د.م: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١٠م).
- كتاب باتنجلي الهندي في الخلاص من الارتباك، دراسة وتحقيق: المستشرق هلموت ريتر، (لبنان: جبيل، دار ومكتبة بيبلون، ٢٠٠٩م).
- الكيتا كتاب الهندوسية المقدس، ترجمة وشرح وتقديم: ماكن لال راي شودري، (لبنان: دار ومكتبة بيبليون، ٢٠٠٧م).
- الماجدي، خزعل، الحضارة الهندية، ط١، (بيروت: د.ن، ٢٠١٩م).
- مسعود، جبران، الرائد معجم لغوي، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢م).
- منوسمرتي كتاب الهندوس المقدس، علق عليه وقارنه بكتب الديانات العالمية الثلاثة: احسان حقي، ط١، (د.م: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، د.ت).

- المهابهارتا ملحمة الهند الكبرى، ترجمة وتحقيق: عبد الإله الملاح، ط١، (دمشق: دار ورد، ٢٠٠٢م).
- الموسوعة العربية الميسرة، "الآريون"، (دمشق: د.ن، ١٩٩٨م).
- الندوي، محمد اسماعيل، الهند القديمة حضاراتها ودياناتها، (مصر: دار الشعب، ١٩٦٩م).
- نهرو، جواهر لال، اكتشاف الهند، ترجمة: فاضل جكتر، (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٩م).
- نومسوك، عبدالله مصطفى، البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها، (الرياض: اضواء السلف، ١٩٩٩م).
- والي، عبد الهادي محمد، تاريخ الفكر الإجتماعي، (www.books4all.net: ٢٠٠٥-٢٠٠٦م).

ثانياً: المصادر الأجنبية

- Gregorg Possechi., The Indus Civilizeation, (New Delhi, 182).
- H.D, Griswold., The Religion of Rig Veda, (Delhi: Motilal, 1971).
- Jane Melntosh., A Peaceful Realm: The Rise and fall of Indus Civilizeation, (Boulder, Co, 2020).
- Maria Gimbutas., The Slavs, (London: 1971).
- Michel B. Sake Harious., Les Proto_Grecs, (Ekdotike Athenon: 1980).
- R.E.O. Martin., The Gods of India, (New York: E.P. Dutton & Co. Mcmxiv, 1913).
- Robert Kfoury, Les Six Systemes de la Philosophie hindoueans le contexet de la trdition vedique, (Beyrouth: Extasis, 1986).
- Weech & Rylands., Peoples and Religions of India, (Canada: 1977).
- Wendy Donider., KARMA and REBIRTH in Classical Indian Traditional, (USA: Universty of California Press, 1980).